أساليب الخطاب القرآني
من خلال مناسبة فواتح السور لمقاصدها[1]
دراسة دلالية سياقية ـ التفسير الكبير لفخر الدين الرازي أنموذجا ـــ

طالب دكتوراه / بلحرش عبد الحليم إشراف أ. د. عرابي أحمد
جامعة ابن خلدون ـــ تيارت ـــ

ملخص:

يعتبر هذا العمل عملا تطبيقيا في التفسير الكبير لفخر الدين الرازي، يسعى للكشف عن الأساليب البلاغية و الإقناعية من خلال وقوفه عند مناسبة فواتح السور لمقاصدها، وبيان أن أساليب الخطاب التي تدعو إليها النظريات الحديثة لها تأصيل واضح وجليّ في الخطاب القرآني؛ ويظهر هذا في أعمال المفسرين، ومنهم فخر الدين الرازي في تفسيره الكبير، حيث تراه يذكر بعضها تارة ويلمح لبعضها تارةً أخرى، وتجده أيضا يشغّل قرينة السياق ليستثير المعاني المستهدفة لهذه الأساليب، ويستظهر وجها من وجوه الإعجاز القرآني، وهو إعجاز التناسب بين الفاتحة والمقاصد في السورة الواحدة.

الكلمات المفتاحية: الخطاب؛ السياق، المناسبة؛ أساليب الإقناع؛ الدّال والمدلول؛ العلة والمعلول؛ النظم؛ الإعجاز؛ الربط؛ السورة القرآنية؛ البيان؛ البلاغة؛ الاستدلال.

***Résumé*:**

Ce travail est considiré comme une étude pratique dans le livre intitulé " el-tafcir el-kabir " de fakhr el- din al- razi afin découvrir les méthodes rhétoriques et convaincantes à travers l'adaptation entre les initiations et les sens des sourates coraniques au milieu, et éclaircir que les méthodes de discours adoptées par les théories modernes sont claires et précis dans le discours coranique, ceci est montré dans les ouvrages des interprètes, et fakhr el-din al- razi parmi ces derniers, dans lequel il cite quelques unes d'une manières explicite, et il se contente d'apercevoir seulement aux autre , et on le trouve aussi

[1] تاريخ الايداع : 2017/10/14 تاريخ الموافقة : 2018/01/22

employer le contexte pour émerger les différents sens visés afin de faire apparaître une des phases de prodige coranique , qui est le prodige de l'adaptation entre les initiations et les sens des sourate coraniques au milieu. .

Les mots clés:

Le discours; le contexte; l'adaptation; les méthode de conviction; signifie et signifiant; la causative; le syntaxe; le prodige; la liaison; les sourate coraniques; l'exploration; éloquence du début verbal; l'inférence.

توطئـــة:

لقد اهتم علماء اللغة بتحليل الخطاب القرآني واستبيان مظاهر الإعجاز التي يتضمنها، فقدّموا الكثير من الأعمال و الآراء التي تكشف عن أسراره ولطائفه. فمنهم من ربطه بإحاطته الكلية التي تشمل مختلف الظواهر الكونية، ومنهم من ربطه بقدرته على بسط الأحكام الشرعية وتنظيم العلاقات البشرية بدقّة وإحكام، ومنهم من رأى أن إعجازه في بيانه وبلاغته، وها هو الرازي يذكر وجها من وجوه إعجازه يستوحيه من علاقة الترابط والانسجام بين الفواتح والمقاصد في السورة القرآنية وما تنتجه من أغراض ومعان.

يقول الذهبي في كتابه التفسير والمفسرون، وفي دراسته للتفسير الكبير :« وقد قرأت في هذا التفسير، فوجدت أنه يمتاز بذكر المناسبات بين الآيات بعضها مع بعض، وبين السور بعضها مع بعض، وهو لا يكتفي بذكر مناسبة واحدة بل كثيرا ما يذكر أكثر من مناسبة »([2]). ففخر الدين الرازي واحد من العلماء الذين وقفوا عند وحدات السورة ، و العناصر المكونة لها ،لبيان ما بين هذه العناصر من تمازج و ترابط ، و إن تباعدت في أماكنها وترتيبها داخل نظم السورة ، والتي تتكون من ثلاث وحدات و هي : الفواتح ، الخواتم و الوسط .

والذي يعنينا في هذا العمل هو استبيان بعض الأساليب الإقناعية كالشرّح والتّفصيل، والاستدلال والبرهنة، و العموم والتخصيص، والتأكيد، والوصف، وضرب الأمثال وغيرها، مما يستنبط من تناسب فاتحة السور ومقاصد وسطها. وبيان وظيفتها التأثيرية الإقناعية.

[2])- محمد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، دار الحديث، القاهرة، دط، 2005، ج01، ص251.

يتفق الإمام فخر الدين الرازي مع عبد القاهر الجرجاني في أن الإعجاز يكون في النظم والترتيب وذلك بتشابك اللفظ مع ما قبله وما بعده، ليفتح بابا جديدا تستنبط منه معان كثيرة؛ فأما الأبواب الجديدة فهي الأساليب وأما المعاني فهي الأغراض المستهدفة من هذه الأساليب كالتوحيد، وتحقيق الألوهية، وتحقيق النبوة، والاهتداء، وزيادة الإيمان، وغيرها.

ونذكر من هذه الأساليب مايلي:

الشرح والتفصيل:

يعد التفصيل منهجا بيانيا في بناء معاني القرآن، ويكاد يكون نمطا مطّردا في بناء بلاغته. وهو خصوصية من خصوصيات بيانه.فقد بين الله أنه يفصل الآيات في قوله ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ١ ﴾ ([3]) ذكر الزمخشري: « (ثمّ فصلت) ، كما تفصل القلائد بالفرائد ».ومعنى التفصيل هنا تتابعها، وتعلق بعضها ببعض قصد الشرح والإيضاح ومن ذلك التفصيل المستنبط من علاقة فاتحة سورة الأنفال بمقاصد وسطها([4]).

يرى الرازي أنّ جملة الافتتاح قد تكون خلاصة لشرح و تفصيل واردٍ في الجمل الموالية لها.كما ورد في سورة الأنفال، في قوله تعالى: يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَنفَالِۖ قُلِ ٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ٤ ﴾ ([5]).

يقول الرازي:« اعلم أنه تعالى لمّا قال (و أطيعوا الله و رسوله إن كنتم مؤمنين)، واقتضى ذلك كون الإيمان مستلزما للطاعة، شرح ذلك في هذه الآية مزيد شرح وتفصيل ، وبيّن أن الإيمان لا

---

[3])- هود 01 .

[4])- ينظر،أبو القاسم جار الله محمود بن عمرالزمخشري،الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل دار الفكر،ج2،ص257 .

[5])- الأنفال : 01- 04 .

يحصل إلا عند حصول هذه الطاعات »([6]). وفي قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ١ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ٢ ﴾([7])

ويقول أيضا :« واعلم أنه سبحانه و تعالى ذكر من أهوال ذلك اليوم أمورا ثلاثة...» ([8]).وهي: ذهول المرضعة، ثمّ إسقاطها ولدَها لتمام، أو لغير تمام، ثم ذكره بعدها قوله : (وترى الناس سكارى) بعد قوله تعالى:﴿ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا ﴾ ثم يشير في نفس الموضع إلى أنّ قوله تعالى :﴿ پ پ پ پ ڀ ﴾ ، له علاقة بالآية التي بعده ، والتي تعتبر من وسط السورة ، وهو كذلك خلاصة لشرح وتفصيل جاء بعده ، وهو ذِكْره للأمور الثلاثة. وقد تنوعت دراسة الرازي للفواتح تبعا للتنوع في الجملة القرآنية ، فقد وقف عند الفاتحة وهي مميّزة ومجملة لأغراض السورة ، وذلك في سورة النور ، في قوله تعالى : ﴿ سُورَةٌ أَنزَلۡنَٰهَا وَفَرَضۡنَٰهَا وَأَنزَلۡنَا فِيهَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لَّعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ١ ﴾([9]) .

في هذه الآية يبين الفخر القيمة الجمالية والدلالية للفاتحة، و يقسم وحداتها ببراعة، بحيث يُناسب كل وحدة من وحداتها غرضا من أغراض السورة. ويظهر ذلك في قوله:«إنه سبحانه ذكر في أوّل السورة أنواعا من الأحكام و الحدود، وفي آخرها دلائل التوحيد، فقوله : (و فرضناها) إشارة إلى الأحكام التي بينها أولا ، ثم قوله (وأنزلنا فيها آيات بيّنات) إشارة إلى ما بين دلائل التوحيد ، والذي يؤكد هذا التأويل قوله : (لعلكم تذكرون) » ([10]).

---

[6])- فخر الدين الرازي، دار إحياء التراث، ط03، دت، بيروت ، التفسير الكبير ، ج 15 / ص 117.

[7])- الحج : 01 – 02 .

[8])- الرازي، التفسير الكبير ، ج 23 / ص 04 .

[9])- النور : 01.

[10])- المصدر نفسه، ج 23 / ص 130.

و معنى هذا أن قوله: (وفرضناه) مناسب لما ذكر في أول السورة من حدود وأحكام وقوله: (وأنزلنا فيها آيات بيّنات) مناسب لما ذكر في آخر السورة من دلائل التوحيد.و هذا تناسب واضح بين وحدات الفاتحة و مقاصد السورة.

ضرب الأمثال:

ضرب الأمثال من الأساليب الإقناعية التي كانت تستعملها العرب لإيصال الفكرة المراد تحقيقها وتثبيتها لدى السامع، ولأن الخطاب الإلهي يخاطب الناس بألسنتهم فقد كان ضرب الأمثال أسلوبا مهما للقرآن الكريم في بناء خطابه وتحقيق معانيه.

قال السيوطي: « وقال غيره ضرب الأمثال في القرآن يستفاد منه أمور كثيرة التذكير والوعظ والحث والزجر والاعتبار والتقرير وتقريب المراد للعقل وتصويره بصورة المحسوس... ومن ثم كان الغرض من المثل تشبيه الخفي بالجلي والغائب بالمشاهد »([11]).

وجاءت هذه الأمثال صريحة في القرآن الكريم، ومنها ما ذكره الرازي في كشفه للعلاقة بين مطلع سورة البقرة ووسطها.

فقد أكد الرازي على الأهمية الكبيرة ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ ﴾([12]) .

يقول الرازي : « أنه لـمّا بين حقيقة صفات المنافقين عقبها بضرب مثلين زيادة في الكشف والبيان»([13]) فقد شبه الإيمان بالنور والكفر بالظلمة.

الوصف :

الوصف في اللغة: « هو تحلية الشيء »([14]). وربما اتسع ليكون سبيلا إلى التشنيج والتقبيح كقوله تعالى ﴿ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ ([15]) أراد ما تصفونه من الكذب([16])

---

[11])- جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، المكتبة الثقافية بيروت، لبنان، 1973،ج02،ص131.

[12])- البقرة: 17.

[13])- الرازي، التفسير الكبير، ج02، ص73.

والوصف كشف الشيء وإظهاره وتبيان ملامحه وأحواله، وهو ترجمة لمرئيات الأديب ومحسوساته([17]) .

ولقد استعمل القرآن الكريم أسلوب الوصف لأغراض ومعان عديدة كالنصح والإرشاد والتحذير والترغيب والترهيب وبيان حقائق الدين وغيرها.

ومن أمثلة الوصف ما ورد في تفسير الرازي لقوله تعالى: ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ ﴾([18]).

يذكر الرازي في تفسير لهذه الآية: « اعلم أنه تعالى ذكر من قبل جملة من واقعتهم ثم قال – نحن نقص عليك نبأهم بالحق-... ثم قال في صفاتهم – وربطنا على قلوبهم- »([19]). فبعد أن ذكر الله عز وجل قصة أهل الكهف كمقدمة عامة مجملة في بداية السورة عقبها بتفصيل ووصف في وسطها يبيّن فيها حال أصحاب الكهف، ويصور أحداث قصتهم تصويرا بارعا.

العموم والتخصيص:

العام :هو « اللفظ المستغرق جميع ما يصلح له دفعة، بوضع واحد، من غير حصر »([20])

وقال السيوطي(911ه): « العام لفظ يستغرق الصالح له من غير حصر »([21]). أمّا التخصيص فهو « إخراج بعض ما يتناوله اللفظ. ([22]). وقد استعمل القرآن هذين الأسلوبين في مواضع

---

[14])- أبو الحسن أحمد ابن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، تح عبد السلام محمد هارون، دار الفكر ج6، ص115.

[15])- الأنبياء 112.

[16])- ينظر، أبو الفضل جمال الدين، ابن منظور، لسان العرب، دار صادر ، ط01، 1997، ج6،ص449.

[17])- ينظر، ياسين الأيوبي، آفاق الشعر العربي في العصر المملوكي، جـرّوس پـرس،طرابلس،لبنان ط01، 1995،ص192

[18])- الكهف: 13- 14.

[19])- الرازي، التفسير الكبير، ج21، ص97..

[20])- عبد الوهاب عبد السلام طويلة، أثر اللغة، دار السلام، القاهرة، ط02، 2000، ص354

[21])- جلال الدين السيوطي،الإتقان في علوم القرآن،ج2،ص16.

متعددة في القرآن الكريم، فينتقل من الخاص إلى العام تارة، فيدل الخاص على العام، وينتقل من العام إلى الخاص تارة أخرى، فيدل العام على الخاص.وفي ما يلي مثال في التخصيص.

في مناسبة فاتحة سورة النساء لمقاصد وسطها يختار الخطاب القرآني أسلوب التخصيص كمنهج بياني وبلاغي ملائم لتلك الأحكام والتكاليف الشرعية المذكورة في وسط السورة.

يقول الله تعـــــالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝١ ﴾([23]).

يرى الرازي في تفسيره لهذه الآية - باعتبار الجزء الأول من الآية فاتحة، والجزء الثاني وسطا- أن (الناس) لفظ جمع دخله الألف واللام يفيد الاستغراق والعموم ، فهو خطاب موجه لجميع المكلفين، وقوله:(واتقوا الله الذي تساءلون به والارحام) مختص بالعرب؛ لأنّ المناشدة بالله والرحم عادة مختصة بهم، فيقولون : أسألك بالرحم.

فكان قوله : (ياأيها الناس) عاما في الكل، وقوله: (اتقوا الله الذي تساءلون به والارحام) خاصا بالعرب([24]).

ومعنى هذا أن المخصص (العرب) مستقل عن جملة العام (الناس)، ومعارض له، فالسؤال بالرحم خاص بالعرب دون غيرهم.ومعارضة المخصّص للعام شرط أقرّه الحنفية لتحقيق أسلوب التخصيص([25]).

وفي قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ۝٣ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝٤ ﴾ ([26]).

---

[22])- ناصر الدين عبد الله البيضاوي، منهاج الوصول إلى علم الأصول، تح شعبان محمد اسماعيل، دارابن حزم، بيروت، ط01، 2008،ص124. .

[23])- النساء: 01 .

[24])- ينظر، الرازي، التفسير الكبير، ج09، ص158. .

[25])- ينظر، عبد الوهاب عبد السلام طويلة، أثر اللغة، ص365. .

[26])- الحج : 03 – 04 .

يرى الرازي أنّ الله تعالى أخبر فيما تقدّم عن أهوال يوم القيامة وشدتها، و دعا الناس إلى تقوى الله، (وهذا عموم)، ثم بيّن في هذه الآية قوما من الناس الذين ذُكِروا في الأول ، و أخبر عن مجادلتهم (وهذا تخصيص)([27]).

و يشير الرازي بقوله هذا إلى تناسب وسط السورة مع أولها ، فهو في هذه الآية يصف فئة من الناس ، قد ذكروا في أول السورة ، في حديثه عن أهوال يوم القيامة

التأكيد :

جاء في مختار الصحاح « (التأكيد) لغةٌ في التوكيد، وقد (أكّد) الشيء و وكّده والواو أفصح »([28]) ، والتوكيد عند ابن منظور من «وكّد العقد والعهد: أوثقه »([29])

و جاء في المصباح المنير : « أكّدته تأكيدا فتأكّد ويقال على البدل وكّدته ومعناه التقوية »([30]) وهو عند دارسي اللغة كل ما يكسب المعنى قوة ويزيده ثباتا وتمكنا وتقريرا في النفوس([31])، ويجيء التوكيد على ضربين إمّا توكيد بتكرير اللفظ أو بإعادة المعنى وتوضيحه، وهذا الأخير ما سنبيّنه في التناسب بين الفواتح والمقاصد من خلال سورة المؤمنون.

قد يأتي التناسب بين الفواتح و المقاصد بأن تكون الآية في الوسط مؤكّدةً للافتتاح، و نجد هذا في سورة المؤمنون ، في قوله تعالى: ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ۝٧ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ

---

[27])- ينظر فخر الدين الرازي ، التفسير الكبير ، ج 23 / ص 05.

[28])- محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، مختار الصحاح، دققه عمر فارس الحرستاني، دار عمار، ط09، 2005، ص17.

[29])- ابن منظور، لسان العرب، ج 6، ص.482.

[30])- أحمد بن محمد بن علي الفيومي، المصباح المنير، مكتبة لبنان، 1987، ص07.

[31])- ، عبد الرحمان حسن حنبكة الميداني ، البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها، دار القلم، دمشق، ط01، 1996،ج01 ص466. .

ٱلۡفِرۡدَوۡسَ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمٗا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تُبۡعَثُونَ ﴿١٦﴾ ﴾([32]).

تبدو لنا علاقة الفاتحة بوسط السورة و مقصدها جليةً في هذه السورة . و يوضح الرازي ذلك، حيث يرى أن آيات الافتتاح في هذه السورة جاءت في حديث الأمر بالعبادات، والاشتغال بعبادة الله لا يكون إلاّ بعد معرفة المعبود، ولذلك ذكر الله سبحانه وتعالى ما يدلّ على و جوده ووحدانيته تأكيدا للأمر . و ذلك بذكر بعض آياته في الخلق كخلقه للإنسان، و خلقه ليوم القيامة([33]). وذكر الخلق أسلوب إعتمده الخطاب القرآني في كثير من المواضع بهدف التوكيد.فذكر الخلق وبيان القدرة دليل يؤكد الحكم الذي قبله.

السببية (التعليل):

إن قانون السببية هو مفتاح الفكر، فهو معيار عقلي يبصر- في الكائنات ارتباط كل كائن بسبب.وقد استعمله القرآن الكريم في كثير من المواضع كمنهج بياني يبين فيه علاقة الأسباب بالمسببات، ومن ذلك ما جاء في سورة النساء.

في هذه السورة يستوعب الرازي العلاقة السببية من خلال تتبعه لفاتحة السورة والمعاني التي تتبعها، فوقف عند جملة المطلع ، وحلّل عناصرها بغرض معرفة ما يندرج تحتها من مقاصد أُنجزت في وسط السورة .

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴿١﴾ ﴾([34]).

يقف الفخر عند قوله: (اتقوا ربكم) ، و يعتبره العلّة في ذكر التكاليف المذكورة بعده . فهو يرى أن السورة تشتمل على أنواع كثيرة من التكاليف ، و منها التعطف على النساء والأولاد و الأيتام ، و

---

[32])- المؤمنون : 01 – 16 .

[33])- الرازي، التفسير الكبير ، ج 23/ ص 83 – 84 .

[34])- النساء: 01 .

الرأفة بهم ، و إيصال حقوقهم إليهم . وتشتمل السورة على تكاليف أخرى في الطهارة و الصلاة و قتال المشركين ، و هي تكاليف شاقة تستوجب علّة قوية لحملها . ويبيّن الرازي هذا في قوله : « و لمّا كانت هذه التكاليف شاقة على النفوس لثقلها على الطباع، لا جرم افتتح السورة بالعلة التي لأجلها يجب حمل هذه التكاليف الشاقة، وهو تقوى الرّب الذي خلقنا، و الإله الذي أوجدنا »([35]).

و بناء على ما سبق يمكن القول بأن الفاتحة في هذه السورة علة لجميع أغراضها، وقُدّمت العلّة على المعلول لموجب بيانيّ، فابتدرها بذكر تقوى الرّب، والامتنان و الإنعام تمهيدا لذكر التكاليف و الفرائض ، و هذا الأسلوب في غاية البلاغة و الجمال الفني . فلا أبلغ و لا أعظم من التذكير بالنشأة الأولى من العدم، والإنعام عليهم بأن جعلهم أمة واحدة، وجعل بينهم المودة و الرحمة ، مما يوجب الامتثال للتكاليف و الفرائض .

و يتتبع الرازي تفريعات المعاني داخل السورة و تولُّدها من جملة الافتتاح، و كيف بُني بعضها على دلالته. فقوله تعالى :﴿ خلقكم من نفس واحدة ﴾ تضمنت كثيرا من المعاني الفرعية . فقد يدلّ على المعاد، لأنه لما كان قادرا على أن يخرج من صلب شخص واحد أشخاصا مختلفين، و أن يخلق من قطرة من النطفة شخصا عجيب التركيب ، لطيف السورة، فهو قادر على إحياء الأموات و بعثهم و نشورهم ([36])، ثمّ الخلود إما في الجنة أو النار؛ فهما العاقبة التي لابد أن تنتهي إلى إحداهما حياة الإنسان وهي عاقبة أخيرة ودائمة لا عاقبة من بعدها ([37])

و الحديث عن المعاد موجود في وسط السورة في قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا ٨٧ ﴾ ([38])

وهذا دليل آخر على تناسب الفاتحة مع المعاني والأغراض التي في وسط السورة .

و قد يكون أيضا قوله : ﴿ خلقكم من نفس واحدة ﴾ سبب في و جوب ترك المفاخرة و التكبّر، و إظهار التواضع و حسن الخُلق ، إذ لا يمكن للفرد أن يتعالى و يتكبّر على الآخرين إذا عرف أن الكل قد خلقوا من شخص واحد ([39])

---

[35])- ينظر فخر الدين الرازي ، التفسير الكبير، ج 09 / ص 157 .

[36])- المصدر نفسه ، ج 09 / ص 160 .

[37])- محمد رمضان سعيد البوطي، كبرى اليقينيات الكونية، دار الفكر المعاصر، دمشق، ط08، 1997، ص358 .

[38])- النساء : 87 .

[39])- ينظر: الرازي، التفسير الكبير ، ج 09 / ص 160.

و يدل على معنى آخر يذكره الرازي في قوله: « الحاصل أن قوله (خلقكم) دليل على معرفة التوحيد ، و قوله (من نفس واحدة) دليل على معرفة النبوة » ([40]).

ومعنى هذا أنّ النبي عليه الصلاة و السلام كان أميّا ما قرأ كتابا، و لا تلمذ لأستاذ ، فلمّا أخبر بأن الخلق خلقوا من نفس واحدة، كان ذلك معجزا، لأن العقل لا دليل فيه على أن الخلق يجب أن يكونوا مخلوقين من نفس واحدة، و إنما كان يعرف ذلك من الدلائل السمعية.

و أورَد الرازي تحليلا ذكيا في قوله : (يا أيّها الناس اتقوا ربكم) ، حيث رأى أنّه يدل على المبدأ، فقال: « أنه تعالى جعل هذا المطلع لسورتين في القرآن، إحداهما هذه السورة ، و هي الرابعة من النصف الأول من القرآن .و الثانية سورة الحج، وهي أيضا السورة الرابعة من النصف الثاني من القرآن، ثم إنه تعالى علل الأمر بالتقوى في هذه السورة بما يدل على المبدأ، وهو أنه تعالى خلق الخلق من نفس واحدة ... و علل الأمر بالتقوى في سورة الحج بما يدل على كمال معرفة المعاد، و هو قوله:(إن زلزلة الساعة شيء عظيم)، فجعل صدر هاتين السورتين دلالة على معرفة المبدأ و المعاد ، ثم قدّمَ السورة الدالة على المبدأ على السورة الدالة على المعاد وتحت هذا البحث أسرار كثيرة»(41).

وفي سورة المائدة، وفي قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ ١ ﴾([42])، يقول الرازي: «اعلم أنه تعالى لمّا قرر بالآية الأولى على جميع المكلفين أنه يلزمهم الانقياد لجميع تكاليف الله تعالى ، و ذلك كالأصل الكليّ و القاعدة الجملية ، شرع بعد ذلك في ذكر التكاليف المفصلة »([43]) .

ويظهر لنا أنّ الجملة الأولى في هذه الآية أصل السورة و مبناها ، ففي قوله تعالى : (أوفوا بالعقود) ، يرى الرازي أنه يجب على العبد أن يقوم بكل التكاليف المذكورة في السورة ، التزاماً بالعقود ([44]). فالعهد سبب يفرض عليك الالتزام بالشيء.

---

[40])- الرازي، التفسير الكبير ، ج 09 / ص 160.

[41])- المصدر نفسه ، ج 09 / ص 158.

[42])- المائدة : 01 .

[43])- المصدر نفسه ، ج 11 / ص 125 – 126 .

[44])- ينظر: المصدر نفسه ، ج 11/ ص 123.

ويورد الرازي لطيفة أخرى في التناسب داخل مطلع سورة هود في قوله تعالى: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ١ ﴾ ([45])، فيرى أنه حصل بين أوّل آية المطلع وبين آخرها نكتة لطيفة ، فيقول : « ...كأنه يقول أحكمت آياته من لدن حكيم ، وفصلت من لدن خبير عالم بكيفيات الأمور » ([46]).

وقد تكون علاقة الفاتحة بوسط السورة علاقة العلة بالمعلول ، وقد ذكرنا هذا المعنى فيما سبق . ويوضحه الرازي في قوله : « كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ليأمر الناس ألاّ يعبدوا إلاّ الله » ([47]).

فقد أنزل عليهم الكتاب وأحكمه وفصله ، ثم أمرهم بالطاعة والانقياد، كما حدث في سورة النساء، أن خلقهم من نفس واحدة، فيكون ذلك علة لأن يعبدوا الله و يمتثلوا لأوامره.

الاستدلال والبرهان:

لا ينفي من يتدبر آي القرآن الكريم أن هذا الأخير تضمّن منهجا واضحا للبرهنة العقلية على أمهات مسائل العقيدة ، تلك حقيقة يؤكدها جمهور علماء المسلمين([48])

ومنهم الرازي .

يعمل الرازي بسياق السورة للكشف عن المعاني المتفرعة من الافتتاح لأن الأغراض - عنده- و المقاصد إنّما تنسلّ داخل السورة من أصولها في الافتتاح .و أن سياق السورة يكشف عن العمق الدلالي لبناء جملة الافتتاح و اتساعه ليشمل جميع المقاصد و الأغراض وسط السورة ، و عوّل في استثارته للمعاني على حسن الترتيب والنظم ، لأنه المنظم لبناء المعاني، وتفريع بعضها من بعض. و في هذا نورد رأي الرازي في مطلع سورة آل عمران.

قَالَ تَعَالَى:﴿ الٓمٓ ١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ٢ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ٣ ﴾([49]) .

---

[45])- هود : 01 .

[46])- الرازي، التفسير الكبير ، ج 17 / ص 179 .

[47])- المصدر نفسه ، ج 17 / ص 180.

[48])- رزق الحجر، مسائل العقيدة ودلائلها بين البرهنة القرآنية والاستدلال الكلامي، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، العدد 223، 2007، ص 89 .

يقول الفخر في هذه الآية: « اِعلم أنّ مطلع هذه السورة له نظم لطيف عجيب، وذلك لأن أولئك النصارى الذين نازعوا رسول الله صلى الله عليه وسلّم كأنه قيل لهم : إما أن تنازعوه في معرفة الإله، أو في معرفة النبوة، فإن كان النزاع في معرفة الإله و هو أنكم تثبتون له و لدا، وإن محمدا لا يثبت له ولدا، فالحق معه بالدلائل العقلية و القطعية، فإنه قد ثبت بالبرهان أنه حيّ قيوم و الحيّ القيوم يستحيل عقلا أن يكون له ولدا، و إن كان النزاع في النبوة فهذا أيضا باطل، لأنّ بالطريق الذي عرفتم أن الله تعالى أنزل التوراة والإنجيل على موسى وعيسى، فهو بعينه قائم في محمد صلى الله عليه وسلم وما ذاك إلا بالمعجزة، وهو حاصل هاهنا» ([50]).

إن في مطلع هذه السورة دلالة على معرفة الإله ومعرفة النبوة ، ويتناسب هذا المعنى مع مواضيع السورة وأغراضها التي لا تخرج إثبات التوحيد و النبوة .

و تحليل الرازي دقيق في كون المطلع دليل على معرفة الإله ، ذلك أنه لما ثبت أن الإله يجب أن يكون حيا قيوما ، و أنه موجود لذاته ، و أن عيسى ما كان حيا قيوما ، فإنه يقتضي الجزم بأن لا إله إلا الله ، و ما كان عيسى إلها أبدا. فكلمة (الحي القيوم) جامعة لجميع الأدلة التي تبطل قول النصارى .

ويوضح الرازي وجود التناسب بين المطلع و الوسط في سورة الزُّمر ، فيذكر أنها خطاب للمشركين ، يبطل الله فيها معتقداتهم في اتخاذهم الأصنام آلهة من دون الله مع علمهم بنقصها و عجزها، وكمال الله. فجاء المطلع على تقرير الألوهية كالذي جاء في سورة آل عمران.ثم يذكر بعدها ما يدل على وحدانيته .

يقول الفخر في تفسيره لقوله تعالى قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ۝٦ إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ

---

[49])- آل عمران : 01- 03 .

[50])- فخر الدين الرازي ، التفسير الكبير ، ج 07 / ص 155 – 156 .

ٱلصُّدُورِ ۝٧ ﴾ ([51]) « اعلم أن الآية المتقدمة * دلّت على أنه تعالى بيّن كونه منزها عن الولد بكونه إلها واحد و قهارا غالبا ،أي كامل القدرة، فلمّا بنى تلك المسألة على هذه الأصول ذكر عقبها على ما يدل على كمال القدرة، وعلى كمال الاستغناء،وأيضا فإنه تعالى طعن في إلهية الأصنام،فذكر عقبها الصفات التي باعتبارها تحصل الإلهية » ([52]).

ونلمس في مطلع سورة الزمر أسلوبا غاضبا في الحديث عن الألوهية التي أبيحت لغير الله، ثّم نجده أشد غضبا في وسط السورة ، في قوله تعالى : قَالَ تَعَالَى:﴿ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْيَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ۝٢٦ ﴾([53]).

إن أهمّ هذه المعاني التي ذكرناها كالألوهية و النّبوة و المبدأ و المعاد و الاشتغال بالعبادة هي المعاني التي تدور في القرآن كله، وليس في السورة فحسب، وأن الأصل في هذه المعاني هو التوحيد لأن منه تنسلّ المعاني الأخرى، كالنبوة والمعاد.

القياس بالتمثيل:

ينبني الاستدلال العقلي على إجراءي القياس والمقايسة([54]).

وهذا مثال في نوع من أنواع القياس ، وهو القياس بالتمثيل.

يقول عبد الله محمد السبعاوي: « إن قياس التمثيل يشتمل على استقراء متبوع باستنتاج ما، مثال ذلك قولنا: إن زيدا يشبه عمرا في لطفه لأنهما من بلد واحد فإن في هذا القول استقراءً واستنتاجا معا، أما الاستقراء فهو: عمر و لطيف، وهو من بلدة كذا ، إذن سكان بلدة كذا لطاف ، وزيد من بلدة كذا ، فزيد إذن لطيف» ([55]).

---

[51])- الزمر: 6 – 7 .

*)- يقصد بالآية المتقدمة قوله تعالى :« لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ» الزمر(5).

[52])- الرازي : التفسير الكبير ، ج : 26 / ص 243 .

[53])- الزمر : 26 .

[54])- أمينة الدهري، الحجاج وبناء الخطاب في ضوء البلاغة الجديدة، شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء، ط01، 2010،ص77.

[55])- طه عبد الله محمد السبعاوي، أساليب الإقناع في المنظور الإسلامي، دار الكتب العلمية بيروت، دط، ص228.

يرى الرازي أنّ علاقة فاتحة سورة آل عمران بالمعاني التي تتبعها هي علاقة استدلالية عقلية تعتمد على القياس والمقايسة - وإن لم يصرح بهذا المصطلح- وذلك أنّ ما يتعلق بالنبوة ذكره الله في غاية الحسن و نهاية الجودة، و دليله على معرفة النبوة هو قوله تعلى: ﴿ نزّل عليك الكتاب بالحقّ ﴾ ، وقد عرف النصارى من قبل أنّ التوراة و الإنجيل كتابان إلهيان .و لما نَزَل القرآن كان من الواجب على النّصارى الإيمان به كما آمنوا بالتوراة و الإنجيل . ذلك أن الواجب إما تصديق الكلّ ، أو تكذيب الكل. وهذا دليل على أنه لا يوجد كلام أكثر فائدة و لا أحسن ترتيبا من هذا الكلام .

نستنتج من تفسير الرازي لمطلع هذه السورة أن القرآن اعتمد منهج القياس بالتمثيل، وهو أن يقيس المستدل الأمر الذي يدّعيه على أمر معروف، ويبين الجهة الجامعة بينهما، وقد سلك القرآن الكريم في استدلاله هذا الطريق على أدقّ وجه وأحكمه مقربا ما بين الحقائق القرآنية والبداهة العقلية ([56])

إن إجراء الافتتاح على تقرير الألوهية أمر معتبر تناط به مقاصد السورة فهو الرابط الناظم لمختلف الأغراض و المقاصد ، فكل المعاني التي داخل السورة لا يمكنها أن تخرج عن سيطرة المعنى الأصلي الذي في الافتتاح . فهي تحتكم إليه في حركتها و تحولاتها.

ويرى الرازي أن مطلع هذه السورة ابتدأ بذكر كتاب الله على أنه تنزيل من ربّ العالمين، وأنه مشتمل على الحق و الصدق ، الأمر الذي يوجب الاشتغال بعبادة الله تعالى على سبيل الإخلاص.

خاتمـــــــــة:

يمكننا أن نقوا في نهاية هذا البحث أنّ الأساليب الإقناعية والتأثيرية التي تدعو إليها النظريات الحديثة إنما لها تأصيل واضح و جليّ في الخطاب القرآني، فلاحظنا أن القرآن الكريم يستعمل لكل مقام الأسلوب المناسب، وهو أحيانا يستعمل أكثر من أسلوب في المقام الوحد. أما وجه الإعجاز المستوحى من هذه الدراسة إنما يستوحى من ترابط و تناسب فواتح السور مع مقاصدها، ليس هنا فحسب، بل وفي براعة القرآن الكريم في اختيار الأسلوب المناسب الذي يمكنه أن يحقق المعاني المستهدفة والغايات المقصودة.

[56])- رزق الحجر، مسائل العقيد ودلائلها، ص 97- 98.